

دور وظيفة الحسبة بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان من خلال كتاب تحفة الناظر لأبي عبد الله محمد العقباني المتوفى سنة 871 هـ/1467 م

أ.د/ عبد الحميد حاجيات

موضوع هذه المشاركة له علاقة بالتنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط. و ذلك أنه يتعلق بعرض ملخص حول نظام الحسبة كما كان مطبقا بتلمسان و تونس و مختلف مناطق المغرب الاسلامي. و ذلك من خلال كتاب تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغيير المنكر» لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني المتوفى سنة 871 هـ الذي ينتمي إلى أسرة من كبار العلماء، و عين في وظيفة قاضي القضاة، مثل جده الأقرب قاسم بن سعيد، و جده الأعلى سعيد العقباني .

و يعد كتاب أبي عبد الله محمد العقباني في الحسبة أشهر تأليف في هذا المجال بالمغرب الإسلامي، و يوجد مخطوط من هذا التأليف بالمكتبة الوطنية بالجزائر، يحمل رقم 1353، و نسخ بخط مغربي في 97 ورقة قياسها 145×211 مم، و ينقص فيها ذكر اسم الناسخ و تاريخ نسخه، بينما ذكر تاريخ الفراغ من تأليفه، و ذلك في أواسط شهر صفر من سنة 860 هـ/1456 م. و يشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبواب:

- الباب الأول: يتضمن نص بعض الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تدعو إلى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.
- الباب الثاني: يتناول أحوال وجوب القيام بالمعروف و النهي عن المنكر، و أحوال ندمه أو حرمة.
- الباب الثالث: في الشروط التي ينبغي أن تتوفر في المحتسب و هي أربعة، أن يكون مسلما و مكلفا و عالما بالمنكر الذي يقوم بتغييره، و قادرا بالقيام به.
- الباب الرابع: في كيفية تغيير المنكر، و طريقة تناوله برفق و تطف و اجتناب العنف كلما يقتض الأمر ذلك.
- الباب الخامس: في مراتب تغيير المنكر من الرفق و التلطف، ثم الوعظ و الدعوة إلى البعد

عن المعاصي بالتخويف من عقاب الله، ثم اللجوء إلى التائب و الإغلاظ بالقول و التقريرع باللسان دون اللجوء إلى السب و الذم، ثم التغيير باليد إذا أمكن ذلك.

- **الباب السادس:** في وجوه الكشف عن المنكر مع نبذ طريق التجسس، و إنما ينبغي الكشف عما اشتهر ذكره من المناكر.

- **الباب السابع:** في أعيان صور المنكر التي تنكرها النفوس السليمة، و ما تتأذى به مما حرمه الشرع و نافره الطبع. و من ذلك مثل مناكر المساجد و ما يتصف به بعض الناس من الرياء و إظهار التشبه بأهل الصلاح ، و الغيبة و النميمة و المداهنة و المجادلة ، و الحلف بغير أسماء الله تعالى و صفاته، و منكرات الشوارع و الطرقات مثل إلقاء الأزبال بالأفنية و الطرق ، و جرأة الجهال على الفتوى ، و منكرات الأسواق ، و مناكر البيع و ضرب الدنانير و الدراهم المدلسة ، و الغش في المطعومات من قمح و شعير و زيت و سمن و لبن و عسل و خبز ، و الغش في الملبوس ، و بيع السلاح للعدو، و الاحتكار في زمن مسغبة و مجاعة ، و حكم التسعير على الناس فيما يبيعه، و التسعير بالحوانيت و الأسواق ، و منكرات الربا و بيع الجواهر ، و ما يمتنع من البيوعات و ما لا يصح العقد عليه.

- **الباب الثامن:** فيما يختص به من ذلك أهل الذمة ، و من كان في حكمهم من المعاهدين. و يتناول هذا الباب أصل ضرب الجزية على أهل الذمة ، و حكمة مشروعيتها و حكم أرض الصلح و العنوة، و حكم أرض المغرب ، و الجزية العنوية و فتوة الجند الأقرب في يهود البلاد التواتية و حكم رهبان الكنائس و حكم من تطلع على عورات المسلمين و تمرد على أحكامهم من أهل الذمة و من المناكر بناء أهل الذمة الكنائس في بلاد المسلمين.

- و يلي هذه الأبواب الثمانية خاتمة في أصل ولاية الحسبة ، و في ولاية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و ما تفرق به من غيرها من الولايات ، و شروط والي الحسبة ، و الفرق بين والي الحسبة و بين غيره ممن يتطوع الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و ما بين ولاية الحسبة و المظالم من الاجتماع و الافتراق.

* * *

و الجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب يتحدث عن نظام الحسبة بتلمسان و أقطار المغرب الإسلامي الأخرى في عصره، أي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، و ذلك في عهد

الدولة الزيانية ، بعد حوالي قرن من وفاة أبي عبد الله الشريف و معاصريه سعيد العقباني و عبد الرحمان ابن خلدون و أخيه أبي زكرياء يحي و أبي عبد الله محمد ابن مرزوق الخطيب و غيرهم الذين ساهموا في ازدهار الحياة الفكرية و الثقافية. و استمر ذلك الازدهار في عصر أبي عبد الله محمد العقباني مؤلف كتاب الحسبة، الذي عاصر العديد من العلماء أمثال جده قاسم العقباني المتوفى سنة 854هـ ، و ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842 هـ ، و أبي العباس أحمد ابن زاغو المتوفى سنة 845هـ ، و أبي عبد الله محمد بن العباس المتوفى سنة 871هـ ، و الشيخ محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 895هـ ، و أبي العباس أحمد ابن زكري المتوفى سنة 900 هـ و أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة 909 هـ ، و كلهم من علماء تلمسان مما يدل على استمرار الازدهار الفكري و الثقافي بالمغرب الإسلامي في عصر أبي عبد الله العقباني مؤلف كتاب «تحفة الناظر» في الحسبة.

و يلاحظ أيضا أن الأوضاع السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية التي عاصرها مؤلف كتاب «تحفة الناظر» تختلف كثيرا عن أوضاع أقطار المغرب الإسلامي في عصرنا هذا و تتطلب البحث عن الحلول المناسبة لتحقيق التنمية الاقتصادية ، كما يلاحظ أن أبا عبد الله محمد العقباني يحاول تقديم نظام صالح لكل مجتمع في جميع العصور معتمدا على نصوص تم تطبيقها في ظروف تختلف في بعض المجالات عن أوضاع عصرنا هذا.

و هذا يعني أن إيجاد الحلول المساعدة للتغلب على بعض القضايا الأخلاقية و الاجتماعية و الاقتصادية يتطلب اللجوء إلى وسائل حديثة يمكن الاستعانة بها لتكوين أجيال جديدة تبذل مزيدا من الجهود من أجل الابتعاد عن المناكر و المعاصي و تساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية، اعتمادا على ما حدث في عصرنا من تطور هام في مختلف المجالات. و لذا فينبغي تطبيق منهجية في تكوين الأجيال الجديدة تعتمد على الأسس الاعتقادية و الأخلاقية و الدينية و تتجه إلى المستقبل لتحقيق تنمية اقتصادية.